مجلة الرائد ، العدد ٢٦١ ، ربيع الأول ١٤٢٩ ، أذار – مارس ٢٠٠٨، www.alraid.net

التقليد يذهب بأصالة الأمة

د. محمد بن لطفي الصباغ

إخوتي وأخواتي

أبنائي وبناتي

قرأت في مطلع الشباب كتاباً قيِّماً ألَّفه مفكر إسلاميٌّ هداه الله إلى الإسلام، وهو الأستاذ محمد أسد رحمه الله، وعنوان هذا الكتاب: ((الإسلام على مُفترَق الطرق)) وفيه فصلٌ رائع عن ضرر تقليد المسلمين للغرب.

وقد قال في هذا الفصل:

[إنَّ تقليد المسلمين سواء كان فرديّاً أم جَماعيّاً لطريقة الحياة الغربيَّة لهو بلا ريب أعظمُ الأخطار التي تستهدف الحضارة الإسلاميَّة. ذلك المرض – ومن الصعب أن نسمِّيَه بغير هذا الاسم – يرجع إلى ما قبل بضعة عُقود، ويتصل بقُنوط المسلمين الذين رأوا القوَّة الماديَّة، والتقدُّم في الغرب، ثمَّ وازنوا بينهما وبين الحالة المؤسفة في بيئتهم الخاصَّة. ولقد كان من جهل المسلمين لتعاليم الإسلام.... أن نشأت الفكرةُ القائلة: إنَّ المسلمين لا يستطيعون أن يُسايروا الرقيَّ الذي نراه في سائر أنحاء العالم ما لم يتقبَّلوا القواعدَ الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة التي قبلها الغرب].

ثم قال: [إنَّ السطحيِّين من الناس فقط لَيستطيعون أن يعتقدوا أنَّه من الممكن تقليد مدنيَّة ما في مَظاهرها الخارجيَّة من غير أن يتأثَّروا في الوقت نفسه بروحها. إنَّ المدنيَّة ليست شكلاً أجوف فقط، ولكنَّها نشاط حيٌّ، وفي اللحظة التي نبدأ فيها بتقبُّل شكلها تأخذ مجاريها الأساسيَّة ومؤثِّراتها الفعَّالة تعمل فينا، ثمَّ تخلع على اتجاهنا العقليِّ كلِّه شكلاً معيَّناً، ولكن ببطء ومن غير أن نلحظَ ذلك. ولقد قدَّر الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الاختيارَ حقَّ قدره حينما قال: ((مَنْ تشبَّه بقومٍ فهو منهم))[١] وهذا الحديث المشهور ليس إيماءة أدبيَّة فحسب، بل هو تعبيرٌ إيجابيٌّ يدلُّ على أن لا مفرَّ من أن يصطبغَ المسلمون بالمدنيَّة التي يقلِّدونها].

ثم قال: [وليس ثَمَّة خطأ أكبرُ من أن تفترض أنَّ اللباس مثلاً شيء خارجيٌّ بحت، وأن لا خوف منه على (حياة الإنسان) العقليَّة والروحيَّة. إنَّه على وجه العموم نتيجةُ تطوُّر طويل الأمد لذَوق شعب ما في ناحيةٍ معيَّنة، وزيُّ هذا اللباس يتَّفق مع الإدراك البديعي لذلك الشَّعب ومع مُيوله].

ثم قال: [وكيما يستطيعَ المسلم إحياء الإسلام يجب أن يعيشَ عاليَ الرأس، يجب عليه أن يتحقَّق أنه متميِّز، وأنَّه يختلف عن سائر الناس، وأن يكون عظيم الفخر لأنَّه كذلك].

أقول: وهذا كلامٌ صحيح وعميق. لقد ضرب هذا المفكِّر مثلاً باللباس.. وهناك أمثلةٌ كثيرة في تقليد الآخرين وقع بعضُ

المسلمين فيها. ومن ذلك تخلّي كثير من المسلمين عن طِراز السَّكَن الإسلامي إلى طِراز أجنبيٍّ، وهذا ما سنفصِّل القول فيه في هذه الكلمة. ومن ذلك تقليدُ بعضهم الآخرين باتِّخاذ يوم معيَّن عيداً لمعنىً من المعاني، كعيد الحبِّ الذي يكون عند الكفَّار في: الرابعَ عشرَ من شُباط (فبراير).

إنَّ الاحتفال بهذا اليوم أمرٌ محظور شرعاً؛ لأنَّه تقليد للكفَّار وتشبُّه بهم، ولأنَّ الحبَّ منه ما هو حرام، ومنه ما هو حلال، فإذا كان حراماً كحبِّ امرأة أجنبيَّة فهذا لا يجوز أصلاً.

وإذا كان حلالاً كحبِّ الله ورسوله والوالدين والزوجة والأولاد – ولكلِّ نوع من أنواع الحب هذه طعمٌ خاص – فهذا لا يكون الاحتفالُ به وتذكُّره في يوم من أيام السنة، بل ينبغي أن يتذكَّره المرء دائماً.

نعم.. لا يجوز أن نقلِّد الآخرين في هذا وأشباهه لما رواه أبو سعيد الخُدري رضي الله عنه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال:

((لتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن كان قَبلَكُم شِبراً بشِبر، وذِراعاً بذِراع حتّى لو دَخَلوا جُحرَ ضَبٍّ لاتَّبَعتُموهُم)) قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: ((فمَن؟))[٢].

وقوله (شِبراً بشِبر، وذِراعاً بذِراع) هذا تمثيلٌ للاقتداء بهم في كلِّ شيء ممَّا نهى عنه الشَّرع. وأودُّ أن أتحدَّث اليوم عن السَّكَن الإسلاميِّ الجميل الرائع الذي تخلَّى كثير منَّا عنه، إلى الطِّراز الغربيِّ في البناء الذي يُشبه صناديق من الإسمنت المسلَّح، باردة في الشتاء حارَّة في الصيف. إن أغلق ساكنوها نوافذَها كانوا في ظلام دامس وغمٍّ، وإن فتحوها كانوا مكشوفينَ كأنهم جالسون في الطريق.

لقد كنَّا نعيش في بيوت توافَرت لها الشروط الصحِّيَّة، وعناصر الجمال العُمراني، وأسباب الراحة والمتعة والسَّكَن النفسي، وتتَّفق مع أخلاقنا وقيمنا. كان البيت جنَّة وارفةَ الظِّلال، فيها الماء الجاري دائماً في بُحيرة يدعونها (البَحرَة)، وكان ماؤها المستمرُّ في الجَرَيان صافياً بارداً، حتَّى إنَّ الناس إذا أرادوا أكلَ البِطِّيخ في الصيف وضعوا البِطِّيخة فيها، فما تلبثُ حتى تصبح باردةً كأنما كانت في ثلاجة، وفيها الشجرُ المثمر من البرتقال والليمون بنوعيه الحامِض والحلو، والنارنج والكبَّاد والعِنَب بأنواعه من الزَّيني والبلدي والحُلواني والأحمر الدُّوماني والأسوَد وغير ذلك، وفيها الورد والفلُّ والياسَمين بأنواعه العديدة، فإذا دخل المرءُ البيت وبلغ ساحةَ الدار السماويَّة سمع زقزقة العصافير والأطيار، وشمَّ العطر والروائح الزكيَّة، واستمتع برؤية الخُضرَة والظِّل الظَّليل، وداعب وجهَه الهواءُ العليل، ووجد السَّتر التامَّ فهو في هذه الجنَّة محفوظٌ بحفظ الله لا يرى أحداً من الجيران، ولا يراه أحدٌ منهم، وتغشاه الشمسُ الجميلة بدفئها وحرارتها.

وتحيط بهذه الساحة الغُرفُ التي تُطلُّ نوافذُها على الساحة، فيتجدَّد الهواء فيها، وتدخُلُها الشمس، ويملأ جوَّها الضياء، ولا يُزعج ساكنَها صوتٌ خارجيٌّ ولا ضجَّة.

وإذا دخلت المرأةُ الدار وجاوزت المدخلَ استطاعت أن تلقيَ حِجابَها، وأن تتجوَّل في جَنَبات الدار وغُرفه، وهي آمنةٌ من كلِّ المزعِجات، فلا تخشى النظَرات الآثِمَة والتطلُّعات الفضوليَّة ولا مراقبة الآخرين.

وللضُّيوف مكان مُنعزل خاصٌّ، وهو ما يُسمُّونه البَرَّاني، يقيم فيه الضَّيف فلا يسمع صوتاً من الداخل، ولا يَحجز حرِّيةَ أهل البيت.

أما ساكنو هذه البيوت فكانوا يتمتَّعون بأنواع المُتَع التي يُتيحُها لهم هذا الطِّراز من البناء، فساحةُ الدار التي تُدعى في دمشقَ (أرض الدِّيار) تُغسل كلَّ يوم بالماء قُبيل الغروب، وتُفرَش أرضُها في الصيف بالسَّجَّاد والبُسُط. والفُرُش والنمارق استعداداً للسَّهرة التي يجتمع فيها أفراد الأسرة جميعاً. فإذا صلَّى أهلُ الدار المغربَ أخذوا مجالسَهم فيها، يسمعون غناء الطُّيور وخريرَ الماء. ويتناولون فيها طعامَ العشاء، ويأنسُ بعضهم ببعض مُتَّكئين مُتقابلين، وتُدار عليهم كؤوس الشاي، فينسى الجالسون فيها تعبهُم ويبقون في هذا الأنس الممتدِّ حتى يغزوَهم النُّعاس.

هكذا كانت بيوتُنا، ثم غزَتنا – وا أسفاه – آفَةُ التقليد الأعمى، فتركنا ذلك اللونَ من طِراز البناء، وأخذنا الطريقة الوافدةَ في المباني.

وكان الناسُ في بادئ الأمر زاهدينَ بهذه المباني.. ودارت الأيام، وتغيَّرت الأحوال، وصار الناس يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، لقلَّة خدمة الشقَّة إذا قيست بخدمة الدار، ولسيطرة الناحية المادية، كان ذلك عاملاً من عوامل نشر هذا اللون من الطِّراز المعماري، وما زال هذا الطِّراز الوافدُ ينافس الطِّرازَ العربيَّ الحبيب القديم ويحاول إزاحتَه من الوجود.

هذا وقد سمعت من مهندسٍ من كبار المهندسين المعماريِّين أن فريقاً من المهندسين في أوربَّا وأمريكا شرعوا يُبرزون معايبَ هذا الطِّراز من البناء ويَدعون إلى إبداع طِراز جديد.

من أجل ذلك فإنني أرجو أن يقومَ لقاء علميٌّ يلتقي فيه المهندسون المسلمون الملتزمون يناقشون فيه هذا الموضوع، ويطالبون

زملاءهم القادرين بتقديم مُقترحات لابتكار طِراز جديد في البناء يتلاءم مع ديننا وعاداتنا الإسلاميَّة، وتتوافرُ فيه الشُّروط الصحيَّة، وتُراعى فيه الأمور الاقتصاديَّة.. ثم يكون بعد ذلك لقاءٌ آخرُ لمناقشة المقتَرحات الواردة.

ومما يُعين على اقتراح طِراز جديد للسَّكَن أن تُدرَس أنماط العمران التي قامت في بلادنا الإسلاميَّة المتعدِّدة، وتُدرس مراحل تطوُّرها.

أقول: لعلَّ هذا اللقاءَ العلميَّ المأمول يصل إلى نتيجةٍ ينتظرها الناس والأجيال المقبلة.

والفكرةُ تكون في بادئ الأمر كلمةً أو خاطرة، تجول في الذِّهن أو تتردَّد على أطراف اللسان، ثم تنضَج وتتحوَّل إلى مَقولة يقتنع الناسُ بصلاحيَّتها، ثم تتحوَّل إلى حقيقة وواقع.

إن علينا أن نتحرَّر من عادة التقليد، وأن نُحذِّر من وُلوج جُحر الضبِّ؛ لأن ذاك يقتلُ فينا الإبداعَ والابتكار ويقضي على الموهبة، وهذا لا يليقُ بالأمَّة التي قال الله فيها: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}.

إنَّ علينا أن نحافظَ على هُويَّتنا، وأن ننمِّي عناصرَ الأصالة في أولادنا: بنين وبنات. والله وليُّ التوفيق.

---

[١] رواه أبو داود عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما في كتاب اللباس برقم ٤٠٣١، ورواه أحمد في المسند ٢/٥٠ و٩٢.

[٢] رواه البخاري برقم ٣٤٥٦ و٧٣٢٠، ومسلم برقم ٢٦٦٩، وابن ماجه برقم ٣٩٩٤، وأحمد ٢/٣٢٧.